بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

من رحمة الله سبحانه وتعالى بخلقه أن رسم لهم سبيل السعادة فى دنياهم وفى أخراهم ، وهو طريق لا استحالة فيه ولا مشقة حقيقة ، قد جربه الكثيرون ففازوا بالسعادتين :

لقد استراحوا فى هذه الحياة الدنيا ، لقد غمرهم الرضا ، وأحاط بهم الاطمئنان ، ولفتهم أردية السعادة .

ولقد ضمن الله لهم حياة هنيئة فى الآخرة : يظلهم بظله يوم لا ظل إلا ظله ، ويكفل لهم عدم الخزى حين يغمر الخزى كثيراً من الخلائق ، ويدخلهم الجنة برحمته ، ويريهم وجهه الكريم تفضلا منه سبحانه ، هذه السعادة فى الدنيا والآخرة وعد الله بتحقيقها لكل من توفر فيه شرطان .

الأول : الإيمان .

الآخر : العمل الصالح .

يقول سبحانه :

(من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون [1]).

لقد وعد الله بتحقيق الحياة الطيبة فى هذه الآية الكريمة لكل فرد تحقق فيه الشرطان ، ونص الله سبحانه فيها على الأنثى ، وسوى بين الذكر والأنثى : وفى ذلك دعوة صريحة أو ضمنية للنساء إلى القيام بالعمل الصالح والتحلى بمكارم الأخلاق ، مثلهن فى ذلك مثل الرجال سواء بسواء ، وذلك حتى تعم السعادة جميع أفراد الأسرة .

---

(١) سورة النحل آية ٩٧ .

وذكر الله سبحانه ثمرة تحقيق هذين الشرطين فى صورة من التأكيد وهى الحياة الطيبة فى هذه الدنيا ، والحياة الطيبة إنما هى السعادة .

ثم بين سبحانه فى صورة أيضاً من التأكيد المؤكد أنه سيجزيهم فى الآخرة وأن جزاءهم لن يكون على مستوى متوسط أعمالهم ؛ وإنما سيكون بأحسن ما كانوا يعملون .

هذه السعادة تتحقق للفرد باعتباره فرداً إذا حقق ما اشترطه الله سبحانه ، وتتحقق للأسرة باعتبارها أسرة إذا تكاتف أفرادها متعاونين متضامنين على توفير الشرطين : يرى كل من أفرادها أنه مسئول عن نفسه وعن الآخرين ، فيتناصحون من أجل سعادتهم :

ألم تر إلى سيدنا إسماعيل ؟ لقد كان فى نفسه (صادق الوعد) :
أى أنه صدق مع الله فى عهد الإيمان والعمل الصالح .
ولقد كان بالنسبة لأسرته (يأمر أهله بالصلاة والزكاة) .
ومن أجل ذلك (كان عند ربه مرضيًّا) [1] .

وهذا قانون إلهى عام ، ليس خاصا بسيدنا إسماعيل ولا بفرد معين ؛ وإنما هو شامل لكل من انضوى تحت لواء الإيمان والعمل الصالح .

وقد بين سبحانه عمومه فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ، وبين سبحانه أنه كما يشمل الفرد وكما يشمل الأسرة فإنه يشمل أيضا المجتمع .

فالمجتمع الذى يحقق الشرطين يصل إلى السعادة .

وإذا كانت الآية التى نحن بصددها هنا تعلن فى وضوح تام عن السعادة فى عمومها وشمولها فى الدنيا والآخرة ، فإن آيات تبين زوايا جميلة من السعادة وتحدد فى تفصيل بعض الجوانب ، يقول سبحانه :

(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ،

---

(١) هذا الجزء واللذان قبله أجزاء من آيتى ٥٤ ، ٥٥ من سورة مريم

لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم [١]) .

والآيات الكريمة تشتمل على زوايا أكبر من زوايا السعادة منها :

١ – أن الذين آمنوا وكانوا يتقون : أى الذين حققوا الإيمان والعمل الصالح – هم أولياء الله .

٢ – ولأنهم أولياء الله فلا خوف عليهم .

٣ – ولأنهم أولياؤه سبحانه فإنهم لا يحزنون .

٤ – ولأنهم حققوا الإيمان والعمل الصالح فإن لهم البشرى فى الحياة الدنيا .

٥ – ولهم البشرى فى الآخرة .

ثم يؤكد الله كل ذلك بأنه لا تبديل لكلماته ؛ إن وعده حق ، ومن أوفى بعهده من الله ؟

ثم يوجه الله سبحانه الأذهان ، أذهان الصالحين وأذهان المنحرفين على السواء – بأن ذلك لا غيره إنما هو الفوز العظيم :

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون [٢]) .

ويقول سبحانه فى شىء من الإيضاح الجميل الشائق :

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون .

نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون

نُزلا من غفور رحيم .

ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين .

ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم .

---

(١) سورة يونس الآيات : ٦٢ – ٦٤ . (٢) سورة الأحقاف آيتا : ١٣ – ١٤ .

وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم [١]) .

ولله سبحانه وتعالى فى عالم الروح وفى عالم الاجتماع قوانين لا تتخلف .

وكما أنه سبحانه رسم فى عالم المادة نواميس تسير فى انتظام فإنه سبحانه رسم فى عالم الأخلاق وفى محيط الإيمان ، وفى ظواهر الاجتماع – قوانين تسير فى نظام محكم بل إنه يمكن أن يقال :

إن قوانين الطبيعة إنما هى « عادات الطبيعة » ، أما القوانين التى عبر الله سبحانه وتعالى عنها فى القرآن الكريم أو على لسان رسول الله ﷺ فى الأحاديث القدسية أو فى الأحاديث النبوية وأكدها سبحانه – فإنها نواميس لا تتخلف .

ولقد أبان الله سبحانه منها عما يحتاج إليه الإنسان فى سعادته الخالدة .

من هذه القوانين :

١ – قانون الاستغفار ، أو قانون سعة الرزق .

يقول تعالى :

(ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين [٢]) .

ويقول سبحانه :

(فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ، ويجعل لكم أنهاراً [٣])

٢ – قانون التقوى ، أو قانون تفريج الكربات وسعة الرزق .

يقول تعالى :

(ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب [٤]).

ويقول سبحانه :

(ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض [٥] ..)

---

(١) سورة فصلت الآيات : ٣٠ - ٣٦ .

(٢) سورة هود آية : ٥٢ .

(٣) سورة نوح الآيات : ١٠ – ١٢ .

(٤) سورة الطلاق من الآيتين : ٢ ، ٣ .

(٥) سورة الأعراف آية : ٩٦ .

٣ – قانون التوكل .

يقول سبحانه :

(ومن يتوكل على الله فهو حسبه [١] ..)

٤ – قانون النصر .

يقول سبحانه :

(ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز [٢]) .

ويقول سبحانه :

(إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم [٣]).

مع العلم بأن النصر دائما إنما هو من عند الله :

يقول تعالى : (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) [٤] .

٥ – قانون الجهاد ، أو قانون الهداية .

يقول تعالى :

(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا [٥]).

أى جاهدوا أنفسهم من أجل الله ، وجاهدوا أعداء الله سبحانه من أجله تعالى ، إذا فعلوا ذلك فإن الله يهديهم إلى الصراط المستقيم : يسدد خطاهم ، ويمنحهم التوفيق فيما يأتون وفيما يدعون ، ويضعهم على أبواب النصر ، وينصرهم بالفعل .

٦ – قانون التوبة .

ونتيجة التوبة الخالصة النصوح المغفرة ، وفى القرآن ما لا يكاد يحصى من الآيات إثباتاً لذلك .

بيد أن الذى نريد أن نتحدث عنه إنما هو قانون التوبة فى ذروتها :

ومما لا شك فيه أن التوبة أنواع :

---

(١) سورة الطلاق آية :٣ .

(٢) سورة الحج آية : ٤٠ .

(٣) سورة محمد آية : ٧ .

(٤) سورة آل عمران آية : ١٢٦ .

(٥) سورة العنكبوت آية : ٦٩ .

(ا) نوع هو أدناها ، وهو التوبة من الذنوب والمعاصى والآثام ، وقد وعد الله التائبين من هذا النوع المغفرة .

(ب) ونوع هو توبة من الغفلة عن الله ، وهو نوع وسط بين التوبة من الذنوب والتوبة التى هى عبادة .

(جـ) أما النوع الأسمى فهو التوبة مع عدم ذنب ، والتوبة مع عدم الغفلة : التوبة حيث لا معصية ولا غفلة ، والتوبة لأن الله أمر بالتوبة ، وتكرار التوبة لأن الله سبحانه يحب ذلك .

وقانون هذه التوبة التى ليست لذنب ولا لغفلة إنما لأمر الله هو ما رسمه الله بقوله :

(إن الله يحب التوابين) [١] .

ولقد عبر الله سبحانه بقوله : « التوابين » ولم يعبر بالتائبين ؛ لأن الله سبحانه يحب الإنابة إليه على الدوام والرجوع إليه باستمرار : أى التوبة دائماً .

ونتيجة ذلك هى هذه المنزلة الكبرى ، وهى حب الله سبحانه للتوابين .

٧ – وللرحمة قوانين عدة :

(ا) الراحمون . . يرحمهم الرحمن .

(ب) ارحموا من فى الأرض . . يرحمكم من فى السماء .

ويتصل بقوانين الرحمة ما يلى من مرويات الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ :

(جـ) من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا . . . نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر . . يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة . والله فى عون العبد . . ما كان العبد فى عون أخيه .

(د) أما القانون الذى أعلنته السيدة خديجة رضوان الله عليها ، والذى كانت نتيجته عدم الخزى فى الدنيا والآخرة – فهو أيضا من قوانين الرحمة :

لقد قال رسول الله ﷺ ذات يوم للسيدة خديجة رضى الله عنها : لقد خشيت

---

(١) سورة البقرة آية ٢٢٢ .

على نفسى . فقالت له فوراً : كلا والله ما يخزيك الله أبداً .

هذه النتيجة التى ذكرتها – رضوان الله عليها – لم تتركها دون ذكر مقدمتها ، أما المقدمة فهى : إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . . وهذه الأوصاف الجليلة الجميلة إنما تتبلور كلها فى كلمة واجدة هى : الرحمة .

والمقدمة والنتيجة يكونان قانوناً من قوانين الرحمة ، يعلن أن كل من أراد ألا يخزيه الله فليكن رحيماً .

(هـ) ومن أحب أن يبسط له فى رزقه ، وينسأ له فى أثره . . . فليصل رحمه ، ومعنى ينسأ له فى أثره : أى يؤخر له فى أجله وعمره ، كما يقول الإمام النووى .

* * *

وإذا كان القرآن الكريم قد رسم طريق السعادة فى عمومه وشموله ، وفصل الأمر فى زوايا منه ، فإنه رسم طريق الشقاء فى عمومه وشموله ، وفصل أيضاً الأمر فى زوايا منه .

وطريق الشقاء فى عمومه وشموله تصوره الآية القرآنية التى تقابل بالضبط آية السعادة التى افتتحنا بها الحديث ، يقول تعالى :

(ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى [١]).

إن هذا الذى أعرض عن ذكر الله إيماناً وأعرض عنه عملا جزاؤه فى هذه الحياة الدنيا معيشة يغمرها الشقاء ، ويوم القيامة يحشره الله متخبطاً لا يهتدى إلى طريق النجاة .

إن هذا الذى أعرض عن ذكر الله فأصابه الله بالمعيشة الضنك – سيشعر بهذا الضنك ولو كان فى سعة من المال وبحبوحة من الغنى ، سيصيبه الله بالشعور بالضنك غنياً كان أو فقيرا ويصور الله سبحانه شعوره بالضنك فى الرخاء والشدة خير تمثيل

(١) سورة طه آية : ١٢٤ .

حينما يصوره فى خسته بالكلب : إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث : أى يلهث فى جميع أحواله .

يقول سبحانه :

(واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين .

ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون .

ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون [١]).

وقد يكون شر هؤلاء عميماً فلا يكون هناك من مناص لتدميرهم : فرادى أو جماعات ، كليا أو جزئيا . وانظر بالله هذه الآيات الكريمة من سورة العنكبوت ففيها عظة وعبرة للأفراد وللجماعات .

للأفراد من أمثال « قارون وفرعون وهامان » .

وللجماعات التى ذكر الله فيها : مدين ،وعاداً ، وثمود .

يقول تعالى :

(ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين .

قال : إن فيها لوطاً . قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين .

ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً . وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين . إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون .

ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون .

وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا

---

(١) سورة الأعراف الآيات : ١٧٥ – ١٧٧ .

فى الأرض مفسدين .

فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين .

وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين .

وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين .

فكلا أخذنا بذنبه : فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون .

إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم .

وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) [١] .

ثم تدبر هذه السورة الكريمة ، سورة الليل ، فإنها تتحدث عن سعى الناس فى الحياة واختلاف أساليبه وطرقه متحدثة بذلك عن طريق السعادة وعن طريق الشقاء .

يقول تعالى :

(والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى . وما خلق الذكر والأنثى . إن سعيكم لشتى : فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ، وما يغنى عنه ماله إذا تردى . إن علينا للهدى . وإن لنا للآخرة والأولى . فأنذرتكم ناراً تلظى . لا يصلاها إلا الأشقى . الذى كذب وتولى . وسيجنبها الأتقى . الذى يؤتى ماله يتزكى . وما لأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى . ولسوف يرضى) [٢] .

لقد بين القرآن القوانين الاجتماعية التى تتعلق بالفرد ، وتتعلق بالأسرة ، وتتعلق

---

(١) سورة العنكبوت الايات : ٣١ – ٤٣ . (٢) سورة الليل الآيات : ١ – ٢١ .

بالمجتمع الكبير . لقد بينها بالتعبير الإلهى فى دقته وروعته . وبينها فى تأكيد واضح .

ولقد اتبع سلفنا الصالح هذه التعاليم فى فجر الإسلام وصدره الأول : فى عهد الرسول ﷺ ، وفى عهد الصديق وفى عهد الفاروق رضى الله عنهما ، فكانت الحياة الطيبة الراضية . وكان النصر والفتح المبين . هذا الفتح الذى لا تجد تعبيراً عنه أبلغ من تعبير هذا المؤرخ الذى أخذته الدهشة فتساءل قائلا : أصغرت رقعة الدنيا فى عهدهم فجابوها بهذه السرعة المذهلة ؛ أم أن الأرض كانت تطوى من تحت أرجلهم . فقطعوها فى زمن قصير ؟

وما صغرت رقعة الدنيا ، وما طويت الأرض . ولكنه الإيمان الحى الذى يصنع المعجزات .

* * *

ما هى الصورة الإيمانية التى كانوا يتمثلونها ويستشعرونها ويعملون على تحقيقها ؟ إننا نذكر هنا بعض آيات من القرآن ترسم مجتمعة أهم جوانب الصورة الإيمانية الكريمة التى كانوا يتحلون بها ، والتى أحب الله للمؤمنين التحلى بها فى كل وقت .

يقول تعالى :

(وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً . والذين يبيتون لربهم سُجّدًا وقياماً . والذين يقولون : ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما . إنها ساءت مستقراً ومُقاما . والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما . والذين لا يدعون مع الله إلٰها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً . إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيماً .

ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً . والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً . والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صُمًّا وعمياناً والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً . أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقرا

ومقاما . قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً [١]).

ويقول سبحانه :

(قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) [٢].

ويقول عز وجل :

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . التائبون ، العابدون ، الحامدون السائحون ، الراكعون ، الساجدون ، الآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله ، وبشر المؤمنين [٣]).

ويقول :

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون [٤])

ويقول :

(إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) [٥].

ويقول سبحانه :

(يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله

---

(١) سورة الفرقان الآيات : ٦٣ – ٧٧ .
(٢) سورة المؤمنون الآيات : ١ – ١١ .
(٣) سورة التوبة آيتا : ١١١ – ١١٢ .
(٤) سورة الحجرات آية : ١٥ .
(٥) سورة الأنفال الآيات : ٢ – ٤ .

ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهارومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين (١) .

هذه الصورة الإيمانية فيها الرحمة وفيها التواضع وفيها العزة إنها فى حقيقة الأمر :

إسلام الوجه لله فى كل ما يحب ، أو هى الاسترسال مع الله على ما يريد .

إنها إسلام الوجه لله فى العبادة ، وإسلام الوجه له فى الجهاد : الجهاد بكل أنواعه : جهاد النفس ، والجهاد فى الأسرة حتى يستقيم أمرها ، والجهاد فى المجتمع حتى يستقيم أمره ، والجهاد فى العمل تجارة كان أو زراعة أو صناعة ، والجهاد الحربى أقوى ما تكون الصورة عدة وعتاداً وروحا معنوية .

لقد دان العالم للمسلمين دون أن تصغر رقعة الدنيا ودون أن تطوى الأرض من تحت أرجلهم ، ولكن لبيعهم النفس والنفيس لله سبحانه .

ثم خلف من بعدهم خلف استقام أمرهم بمقدار قربهم من الصورة الإيمانية السليمة ، واختل أمرهم حينما ابتعدوا عن الصورة الإيمانية الصادقة .

بيد أن الأمة الإسلامية لم تخل فى عصر من العصور من هؤلاء الذين يرفعون أصواتهم بالإيمان وبكلمة الحق مصداقاً لقول رسول الله ﷺ على حسب ما رواه الإمام البخارى : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق يقاتلون ، وهم أهل العلم » ويروى الإمام البخارى حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن إسماعيل ، عن قيس ، عن المغيرة بن شعبة ، عن النبى ﷺ ، قال : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » .

لقد احتفظ الإسلام على وجه العموم بذاتيته مستقلة حية . وكان المسلمون على وجه العموم يلجئون إلى القرآن وإلى السنة معتصمين مسترشدين . وكان الكل – فرادى وجماعات – يتدبرون القرآن والسنة قراءة وعملا . وكانوا كلما وجدوا أنفسهم

(١) سورة الصف الايات : ١٠ – ١٣

ابتعدوا فى قليل أو فى كثير ، عن الروح الإيمانية الصادقة – حاولوا جاهدين أن يستعيدوها ، وقام فيهم الموجه والمرشد من أمثال : الحسن البصرى ، وسفيان الثورى ، ومالك ، وعمر بن عبد العزيز ، وأحمد بن حنبل . والشافعى ، رضوان الله عليهم . .

* * *

واستمرت الأمة الإسلامية – فى صورتها الإيمانية – بين جزر ومد ، ولكن كان مدها فى الجملة أكثر من جزرها ، إلى أن جاءت بدعة ترجمة كتب إلهيات اليونان وكتب أخلاق اليونان أى إلى عهد المأمون .

ونريد قبل أن نتحدث عن بدعة الترجمة هذه أن نعود إلى عصر النبوة فنرى أمراً يجب أن نتدبره :

لقد رأى رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وبيده صحيفة يقرأ فيها ، فقال : ما هذا !

فقال سيدنا عمر : إنها صحيفة من التوراة .

فلم يرض رسول الله ﷺ عن ذلك ، وقال : والله لو كان موسى حيا ما حل له إلا اتباعى !

وبطبيعة الحال ترك سيدنا عمر الصحيفة ولم يعد إليها .

لماذا كان ذلك ؟ ما تعليله ؟ وما الحكمة فيه ؟

الحكمة فى ذلك هى :

أولا : إن الوحى القرآنى وأحاديث الرسول ﷺ قد بينا الحق فى صورة لا لبس فيها ، وفى يقين لا تردد فيه ، وفى وضوح واضح ، وبيناه فى صورة من الدقة لا يتأتى أن يوجد ما يماثلها فى أسلوب آخر ، وذلك أنها بالتعبير الإلهى نفسه . فكان ينبغى على سيدنا عمر فيما رآه رسول الله ﷺ وكان ينبغى على كل مسلم أن يلتزمها .

ثانيا : أن الرسالة الإسلامية خاتمة الرسالات ، مهيمنة عليها : تصديقا ، وإثباتاً ونفيا ، تحق الحق وتبطل الزائف . وهى من أجل ذلك الفيصل والمرجع فى

كل أمر . وقد أنزلت على خير مخلوق وأفضل رسول : (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض)[١] ومن أجل ذلك كانت أفضل وأكمل رسالة .

وما دامت هى المرجع وهى الفيصل ، ومادامت هى أفضل رسالة – فإن الحكمة تقتضى ألا يصرف المسلم وقته ولا بعض وقته فى غيرها .

ثالثا : أن للإسلام شخصية خاصة ، وذاتية محددة ، وطابعا معينا فإذا ما خلط المسلم ذلك بغيره وإذا ما ألف هذا (الغير) بالتكرار والعادة – فإن ذاتية الإسلام تضاع فى ذهنه ، وتختلط فى تفكيره ، فلا يتأتى له أن يتبينها فى وضوح أو أن يتبعها فى دقة .

والشخصية الإسلامية ليست شخصية مادية ، فهى ليست طبيعة ، ولا فلكا ، ولا كيمياء ، ولا علم أحياء ، بل إن الزوايا المادية لا تكون ذاتية ، ولكن الذاتية تتكون من العقيدة والأخلاق والمبادئ والمثل ، إنها فكرة وطابع وشعار ، ولابد أن يكون الشعار والطابع والفكرة محددة معينة . ويجب من أجل هذا التحديد والتعيين ألا تلوث الفكرة بغيرها حتى تستمر الذاتية واضحة فى الذهن مصدراً للإحساس والشعور ، ومبدأ للسلوك والتصرف .

وسار الأمر على ذلك إلى أن كان عهد المأمون .

مهما أشاد المؤرخون بعهد المأمون فإنه مما لا ريب فيه أن المأمون دخل بحمق أحمق ، وبتهور متهور فى النزاع الدينى الذى كان بين المعتزلة من جانب ورجال الحديث وأهل السنة من جانب آخر ، وهو لم يدخل فى هذا النزاع للصلح أو للتهدئة ، وإنما جعل نفسه طرفاً فى الخصومة يكتل الدولة شرطة وجاها ومالا مع طائفة ضد الأخرى !

لقد أخذ صف المعتزلة محاربا رجال الحديث ، أو محارباً الصالحين العابدين الأصفياء .

وظن المأمون أنه إذا ترجم إلهيات اليونان وترجم أخلاقهم فإن فى ذلك نصراً له .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٥٣ .

ونفذ ما رأى بترجمة إلهيات اليونان ، وأمر بترجمة أخلاقهم ، وأمر أيضاً بترجمة إلهيات غير اليونان وترجمة أخلاقهم .

ولقد كان موقف المتدينين تديناً صادقاً من ذلك موقفاً صريحا :

لئن كانت هذه الآراء البشرية اليونانية أو الهندية أو الفارسية حقا – إن عندنا ما هو أحق ، وهو الوحى الإلهى الإسلامى ، وهذا الوحى الإسلامى بالغ فى دقته ، أى : كان بالأسلوب الإلهى نفسه ، أى أنه : إلهى معنى وأسلوبا ، ولسنا من أجل ذلك فى حاجة إلى فكر بشرى فى هذه الجوانب .

أما إذا كانت هذه الآراء البشرية اليونانية أو الهندية أو الفارسية باطلا فإننا فى غنى عنها ، وذلك أن الحياة الدينية أو الحياة الجادة لا تحتمل ولا تقبل إضاعة الوقت فى الباطل . هذا موقفهم فيما يتعلق بالإلهيات والأخلاق وهو موقف واضح .

أما فيما يتعلق بالطب والكيمياء والطبيعة والفلك والعلوم المادية على وجه العموم – فإنهم رحبوا بها باعتبارها عاملا أساسيا فى تدعيم قوة الدولة . ولكن المأمون لم يعبأ بذلك وأمر بترجمة التراث اليونانى – فلسفة أو أخلاقا وشجع الآخرين من الأثرياء والوجهاء وكبار رجال الدولة على أن يحذوا حذوه ويهجوا نهجه . وتنافس هؤلاء فى إرضائه ، وتملقوه بالترجمة كما كانوا يتملقونه بقول ما يرضيه وبعمل ما يرضيه .

وأخذت هذه الكتب تشيع فى أرجاء الأمة الإسلامية .

وكما تقرب الأمراء والوجهاء والأثرياء إلى المأمون بترجمة الإلهيات والأخلاق – فقد تقرب المثقفون إليه بدراستها وتفهمها وتدارسها وإذاعة ما فيها من آراء : مهتدية كانت تلك الآراء أو ضالة ، وكبت آراء المعارضين . ونكل بخصوم المعتزلة : أى نكل بالصالحين من رجال الحديث والسنة .

وشاعت الآراء الدخيلة ، وذاع المنهج البشرى الأرسطى فى الأجواء التعليمية ، وألف الناس الأمر شيئاً فشيئاً .

وعند ذلك أخذت الفكرة الصحيحة عن الذات الإسلامية تأرز شيئا ، وأخذ الجو الإسلامى الصادق يغمره نوع من الغربة .

ولكن القرآن فى نضرته الدائمة ، والسنة فى صفائها وروحانيتها السامية – كانا دائما مبعث إلهام وتوجيه : فكان يقوم من آن لآخر فرد أو أفراد يوجهون المسلمين إلى الصراط المستقيم بسلوكهم وبتدريسهم وبكتبهم وعلى رأس هؤلاء : الإمام الغزالى حجة الإسلام الذى أحيا المفاهيم الإسلامية بسلوكه وبكتابه الخالد (إحياء علوم الدين) الذى قضى على الفلسفة فى المشرق قضاء لم تقم لها بعده قائمة .

وسار فى هذا الطريق نفسه الإمام عبد القادر الجيلانى ، والإمام الرفاعى ، والإمام الشاذلى ، وشيخ العرب ، والإمام الدسوقى ، وغيرهم من كبار الهداة المهتدين الذين كرسوا حياتهم لقيادة الناس إلى الله ورسوله بسلوكهم وبتعاليمهم وكتبهم وكان لهم أتباع ساروا على سنتهم ، وسلكوا طريقهم فاهتدوا وهدوا .

* * *

ولقد غزانا الغرب فى العصور الحديثة بكل ما يملك : بالسلام وبالقلم .

وقد كانت مهمة القلم فى هذا المجال واسعة متفرعة ، لقد كان منها :

١ – محاولة الحط من شأن الشرقيين على وجه العموم ، ومن شأن العرب على وجه الخصوص باعتبارهم جنساً من الأجناس .

لقد تناول كتابهم العرب قبل الإسلام وأخذوا يحطون من شأنهم باعتبارهم جنسا من الأجناس لا باعتبارهم طورا من أطوار الحضارة ، وحكموا عليهم باعتبارهم جنسا بالإعدام الحضارى .

ونسى هؤلاء الحضارة الإسلامية التى ازدهرت عصوراً طويلة ، تناسوها متعمدين ، فإذا ما تحدثوا عنها مضطرين قللوا من شأنها ، وبعثوا حولها الشكوك .

وكان غرضهم من ذلك كله أن يبعثوا عدم الثقة فى نفوس العرب حتى يكونوا باستمرار تابعين للغرب مقلدين له .

٢ – وتناول كتابهم الإسلام عقيدة وتشريعاً وأخلاقا وتاريخا محاولين أن يزيفوا الحقائق فى كل ميدان من ميادين الدين .

٣ – حاولوا أن يقللوا من شأن الإسلام ، ومن شأن العرب ، وحاولوا بكل ما أوتوا من وسائل فى الدعاية أن يبعثوا فى النفوس روح التحلل والفساد الأخلاقى .

وأخذت شخصية الإسلام بذلك كله تأرز وتكمن . وكان لابد من أن تتضافر أقلام المخلصين لدينهم ، وتجتمع عاملة على توضيح ذاتيته متكاتفة على إحياء مفاهيمه .

* * *

وهذا الكتاب وما يتلوه من سلسلة « فى إحياء المفاهيم الإسلامية » ، إنما هو مساهمة متواضعة فى بيان ذاتية الإسلام وتوضيح مفاهيمه ، أرجو الله أن يتقبلها خالصة لوجهه الكريم .

وأرجوه أن يهدى بها وأن يهدى لها .

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .